(١٢)

اختفاء الشجرة

ذكر القرآن الكريم الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الحديبية مثنيًا على المبايعين فيها ، فقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح:١٨) وهذه البيعة هي التي تعرف في المأثور الإسلامي باسم بيعة الرضوان .

وفي صحيح الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أنه بايع رسول الله ﷺ ، وعمر آخذ بيده تحت شجرة ـ وهي سمرة ـ كان النبي نازلا تحتها يستظل بها فبايعوه[1] .

واختلف في هذه البيعة : هل كانت على ألا يفروا ، كما رواه مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ؛ أم كانت على الموت ، كما رواه البخاري وغيره عن سلمة بن الأكوع . والأمر في هذا الاختلاف يسير ، فإن عدم الفرار يعني الثبات حتى النصر أو الشهادة ، وهو نفسه معنى البيعة على الموت ،

---

(١) رواه مسلم، الحديث رقم ١٨٥٦.

إذ لا يقصد به أن كل مبايع سيموت حتمًا إنما المراد أن يكون من هؤلاء المبايعين من الصبر مع رسول الله والثبات حوله والقتال معه ـ إن كان قتال ـ ما تصدق به بيعتهم على عدم الفرار . وهذا لا يكون إلا بالصبر إلى أن يتم الظفر أو تنال الشهادة في سبيل الله . ويدل على صحة هذا الجمع بين الروايتين ما نقلناه في فصل (البيعة) عن بيعة أبي سنان الأسدي للنبي ﷺ ، وأنه بايعه على أن « يضرب بسيفه » بين يديه حتى ينصر الله نبيه أو يقتل أبو سنان . وقد روى عبد الله بن عمر وغيره ، أن الناس بايعوا رسول الله على بيعة أبي سنان .[1]

* * *

ولأن أصحاب النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، كانوا بشرا من البشر ولم يكونوا ملائكة أو أشباه الملائكة ، فقد حفظت لنا الرواية الصحيحة أن بعضهم لم يبايع ، بل فرَّ من البيعة واختبأ تحت بطن ناقته يستتر بها من الناس (!) فروى مسلم عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما [2]، أن جَدَّ بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره (!) وروى ابن اسحاق عن

---

(١) الصالحي ، جـ ٥ ص ٨٣ .

(٢) صحيح مسلم الحديث ١٨٥٦، واسم الصحابي يروى هكذا، ويروى (الجد) .

جابر أيضًا أنه قال عن الجدِّ بن قيس «فكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته، قد خبأ إليها، يستتر بها من الناس»[1]!

وليس في المروي عن هذه الواقعة عقاب، ولا عتاب، ولا لوم للجدِّ بن قيس الأنصاري بسبب تخلفه عن البيعة. نعم في سورة الفتح لوم وتقريع للذين تخلفوا عن رسول الله من الأعراب الذي دعاهم إلى الخروج معه للعمرة فأبوا، وقالوا: قالة سوءٍ عن الرسول ﷺ وأصحابه وهم بطون من بني بكر ومن مزينة ومن جهينة استنفرهم رسول الله ﷺ فسخروا منه، فأنزل الله تعالى فيهم قوله في سورة الفتح: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (الفتح: ١١).

فهولاء تخلفوا عن رسول الله لأنهم لم يثقوا بقدرة الله ـ تعالى اسمه ـ على نصرة نبيه، وظنوا ظن السوء، وأهلكوا أنفسهم بهذا الظن القبيح، فاستحقوا ذلك التقريع واللوم، كما يستحقهما كل من يصنع مثل صنيعهم إلى يوم القيامة.

والجدّ بين قيس لم يبايع فَرَقًا أو جبنًا، لكنه لم يكن يضمر ظن سوء بالله تعالى ولا برسوله ولا بالمؤمنين معه.

---

(١) سيرة ابن اسحق، بهامش الروض الأنف، جـ٢ ص ٢٢٩.

فشأن الأولين كشأن الذين يعيشون اليوم بيننا من المخذّلين والمثبطين الذين يقولون : متى تنتصرون على الصهاينة ؟

ومتى يكون لكم النصر على المحتلين الأمريكيين؟

أين قوتكم من سلاحهم ، وأين عددكم من عدتهم وعتادهم ؟

وهم يسخرون من المقاومة الفلسطينية ، ومن المقاومة الإسلامية اللبنانية ، ومن المقاومة العراقية الوطنية ، ومن المقاومة الأفغانية ، التي لم يسمعوا عنها ولا يعرفون عنها شيئًا ؛ وهم في النهاية يظنون بالله وبعباده المؤمنين ظن السَّوءِ، ويعتقدون أن العاقبة لا يمكن أن تكون لنا على عدونا ، ولا يعتقدون في مقتضى قول ربنا سبحانه ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:٧) .

وشأن الجدِّ بن قيس كشأن كثير من الطيبين الصالحين الذين يشفقون على المجاهدين الذين يفدون الأوطان والأديان والمقدسات بأرواحهم ، وهم شبان وشابات في مقتبل الأعمار، وفي وقت الطمع في الحياة وملذاتها ، والأمل في التنعم بخيرات الدنيا قبل التطلع إلى نعيم الآخرة ، وهم مع هذا الإشفاق لا يجدون في أنفسهم القدرة على المقاومة ولو بالكلمة أو النفقة (!) ولكنهم يتمنون في قلوبهم للمجاهدين

النصر والظفر ، وأنت تراهم يبالغون في التأمين (قول: آمين) خلف الأئمة في الخطب والصلوات إذا دعوا بالنصر للمجاهدين(!) وهذا مبلغهم من القدرة ، وطاقتهم من العمل ، فهل يستحق هؤلاء لومًا أو تقريعًا ؟؟

بمثل هذا الشعور الطيب الصادق نجا الجدَّ بن قيس ـ والله أعلم ـ من اللوم والتقريع . وبمثل قول المخذلين والمثبطين استحق المخلفون من الأعراب ما ألحقه بهم القرآن الكريم من سوء ذكرٍ باقٍ في العالمين .

* * *

وقد عظَّم الناس ـ بعد رسول الله ﷺ ـ من شأن الشجرة التي بايعه تحتها أصحابه ، يوم الحديبية ، بيعة الرضوان . فروى البخاري وغيره عن طارق بن عبد الرحمن أنه كان في طريقه إلى الحج فمرَّ بقوم يصلون ، فقال لهم : « ما هذا؟ » (أي لماذا تصلون هنا) قالوا : « هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ ، بيعة الرضوان » .

قال طارق بن عبد الرحمن فأتيت سعيد بن المسَيَّب فأخبرته ، فقال سعيد : « حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، فلما خرجنا من العام المقبل (أي في عمرة القضاء التي أدوها بعد صلح الحديبية) نسيناها فلم نقدر عليها. فقال سعيد:إن أصحاب محمد لم يعلموها وعلمتموها

أنتم ، فأنتم أعلم»[1] ! ولما بلغ عمر بن الخطاب أن قومًا يأتون الشجرة التي بويع تحتها فيصلون عندها ، توعدَّهم ، ولكن يبدو أن وعيده لم يؤثر في رغبة الناس في طلب الخير بالصلاة حيث بويع النبي بيعة الرضوان ، فأمر بها عمر فقطعت ! وقال عبد الله بن عمر ، عندما اختلف بعض أصحاب النبي ، الذين كانوا معه في الحديبية ، في موضع الشجرة إن ذلك كان رحمة من الله !

وقد قال بعض رواة السيرة إن مقصود ابن عمر بهذه الجملة هو أن خفاء الشجرة كان رحمة لئلا يفتتن بها الناس ، وقيل إن معنى هذه الجملة أن الشجرة كانت موضع رحمة الله تعالى ورضوانه اللذين نزلا على المؤمنين عند البيعة .

وقد روى البخاري عن جابر بن عبد الله قوله « لو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة »[2] وقد كان ذلك بعد أن كبرت سنه وذهب بصره ، وهو يدل على أنه كان يعرفها بذاتها قبل أن يقطعها عمر بن الخطاب ﷺ . وعدم علم بعض الصحابة بمكانها لا يدل ـ قطعًا ـ على عدم علم الجميع به .

وقد علل العلماء قطع عمر للشجرة، كما عللوا خفاءها، على بعض أصحاب النبي من أهل البيعة أنفسهم ، بأن ذلك

---

(١) متفق عليه البخاري ، الحديث رقم ٤١٦٣، ومسلم رقم ١٨٥٩ .

(٢) متفق عليه : البخاري الحديث رقم ٤١٥٥؛ ومسلم رقم ١٨٥٦ .

كان لئلا يفتتن بها الجهال من عوام المسلمين ، بسبب ما وقع تحتها للنبي وأصحابه من الخير ، فيظنوا أن لها قوة وتأثيراً تنفع بهما وتضر ، وهو مالم يكن واقعًا قطعًا في زمن الصحابة والتابعين .

وقد اتخذ بعض التابعين مسجدًا بسيطًا في الموضع الذي كان متعارفًا عليه بينهم أنه موضع الشجرة ، وقد تهدَّمَ هذا المسجد وجُدِّد بناؤه مرات ، كان آخرها في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ على ما أخبرني به الأخ الجليل الشيخ أحمد زكي يماني ، وقال لي إن لدى موسوعة الحرمين الشريفين، التي يشرف عليها ويعمل لإصدارها قريبًا، صورة من الجوِّ لقواعد المسجد كما كانت في آخر بناء له قبل أن يُهْدَم ذلك البناء للسبب نفسه: خشية افتنان الناس به !

والفقه في هذه المسألة يدور على قاعدة « سد الذرائع ». فكل سبيل يخاف منها على العقيدة الصحيحة ، أو يخشى أن تفضي إلى اختراع عبادة لا أصل لها ، أو نحو ذلك ، فمن الواجب سَدُّها. ويوازن دائمًا ـ لزومًا ـ بين المصلحة التي تتحقق بترك الأمر على حاله ، وبين المفسدة التي يخشى من وقوعها ، على نحو ما فعل رسول الله ﷺ عندما ترك بيت الله الحرام على حاله ولم يُعِد بناءه على قواعد إبراهيم وعلَّل

ذلك بأن الناس حديثو عهد بالكفر ، أو بالجاهلية ، أو بشرك[1].

فإذا أردنا أن نطبق ذلك على مسألة مسجد الحديبية ، وعلى مسألة الشجرة التي أمر عمر بقطعها ، وجدنا أن عمر كان على أصل صحيح حين خشي ـ والناس قريبو عهد بشرك ـ أن تقدَّس الشجرة ، ويظن بها ما لا يجوز اعتقاده من النفع والضرر .

ولكن المسجد ـ عند المسلمين كافة ـ هو لله وحده. لا يعبد فيه إلا هو سبحانه . وليس ثمة خوف من أن يكون المسجد وسيلة إلى الشرك بالله أو عبادة الشجر أو الحجر معه. كيف والقرآن يتلى كل يوم فيكرر القارئون : ﴿ **وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا** ﴾ (الجن١٨) فلعله كان من الأولى ترك المسجد لا هدمه ، وفي توعية المسلمين وتثقيفهم ما يحول بينهم وبين المفسدة التي قد يخشى بعض الخائفين على إيمان الناس منها. والله تعالى أعلم .

* * *

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة، البخاري ١٥٨٣-١٥٨٦؛ ومسلم ١٣٣٣ والألفاظ الثلاثة فيهما؛ وقد جمع رواياته الألباني في الأحاديث الصحيحة رقم٤٣.